حسين مهنّا
على سرير أبيض
مؤسسة الأسوار - عكا
نصّ

حسين مهنّا

على سرير أبيض

- نصّ -

مؤسسة الأسوار - عكا

على سرير أبيض

عنوان المؤلف

ص.ب. ٣٢

البقيعة - الجليل ٢٤٩١٤

تلفاكس : ٨٨٦ ٩٩٧٦-٤٠

طبعة أولى ١٩٩٨

عكا

حرّرني الطّبيبُ من جهاز (الإكو) وقال:

– إنّ قلبكَ كبير :

تبسّمْتُ وقلْتُ :

– عدمتُهُ إن لم يتسّع لهذا العالَم !

لم يفهم . . وتابع :

– وقلبُكَ ضعيف !

لم أفهم . . وقلْتُ :

لستُ المقداد بن الأسود ولا زيدَ الخيل

ولكنّي لم أعرف الجُبنَ يومًا

وما مرّ بي يومٌ إلاّ ودمي على كفّي.

لم يفهم . . تبادلنا دهشةً بدهشة . .

بعد حين عرفتُ أن لغة الأطباءِ ،

غيرُ لغةِ الشّعراء

لماذا أيّها القلبُ ؟

يا صديقي اللّدود . . لماذا ؟ !

لقد حمّلْتُك كُلّ ما تُريد .

وقد فتحْتُ أبوابَك الرّحبةَ على مصاريعها

وعلّقْتُ فوق كلّ بابٍ لافتةً ،

بِحَجْمِ أمانيّ المتنامية كالبكتيريا ،

وقلْتَ بأعلى صوت :

إليّ أيّها الحزانى !

هُنا مُتّسعٌ للجميع

أدخلوا فسطاط قلبي

إخلعوا قمصانَ شقائكمْ

واغتسلوا بماويّةِ محبّتي . .

والبسوا عباءَاتِ فَرَحي . . وسيروا ،

ولكنْ ليس قبل ثلاثةِ أيّامٍ وثلث اليوم –

أصول الضّيافةِ العربيّة –

لا ! ! ليس قبل ثلاثةِ أيّامٍ وثلث اليوم . .

أيّها القلب ! !

يا مَنْ فاجأتني ببُخْلٍ لم أعهدْهُ فيك

الشحُّ بغيض . .

أرجوك . .

لا تطفئْ نارًا تحت قِدْر !

والغَدْرُ مقيت . .

أتوسّلُ إليك ! !

لا تُقامرْ على صداقةٍ بيننا

غذّتها بُلَهْنِيَةُ العيشِ

وقوّتْها الشّدائد

أيّها القلب . .

يا حاكمي مِن قبلُ ومن بعدُ

ما كُنتُ لأخذلَكَ يومًا ! !

فهلاّ أنصفتَني ؟ !

۳

عندما يختلط حزنكَ بأحزان الآخرين

تذوبُ ذاتك . .

تصبحُ محلولاً بلا طعم

وبلا لون .

يصبحُ حزنُك دمعةً في بحر

وهمّك شيئًا من همِّ الجماعة

والجماعةُ تمتصّ ملحَ الحياةِ وملُوحَتَها

منتظرةً الفرحَ الأكبر أبدًا . .

وعن حكمةٍ بليغةٍ قالوا :

(فإنّ الحزينَ يؤاسي الحزينا)

على سريري الأبيض هنا

في الطّابق الخامس في مستشفى الكرملِ

في حيفا

تعلّمتُ أنّ الحُزن نشيدٌ جماعيّ

كورالٌ جنائزيّ متناغمٌ مُتقنُ التّدريب

وأنّ الفرحَ نشازٌ عارٌ للأذُنِ

ثاقبٌ للعينِ

ثقيلٌ على القلب . . ! !

وتعلّمتُ أيضًا، أنّ الحُزنَ ملابسُ موحّدة

يلبسها حزانى الأرض

أو دمغةٌ يُدمغُ بها القطيع

وأمّا الفرح فعلامةٌ فارقة.

3

بعرضِ سِني عمري الاثنتين والخمسين ،

وطولها ،

ما رأيتُ أبي ينتحبُ إلاّ أمس

هنا على سريري الأبيض

في الطّابق الخامس في مستشفى الكرمل في حيفا .

يا لعُواءِ الشّيخوخةِ الحزينةِ المستوحشة ! !

دموعُ أبي

تسيلُ فتبلّلُ لحيته الجليلة ، الملحاء

وتجفّفُ مصادرَ فرحي

دموعُ أبي

سائلٌ عاديّ

ولكنْ لهُ قدرة عجيبةٌ على تحويل فرحِ هذا العالم ،

في عينيّ ،

الى بُحيرةِ حُزن غير عاديّة .

تشدّني . .

تشدّني الى أعماق أعماقها

وأنا لا أحسنُ الغَطسَ

أو العوم .

وقد أنجو من السّكتةِ القلبيّةِ
لأموت غرقًا بدموع أبي ! !
آهِ من دموعِ أبي . . . !

٥

مسحَ دموعه . .

وحوّطني بكُلّ ما يُحفظُ من آياتِ تجلب الحظّ

وتمنعُ سوءَ الطّالعِ ،

وخرج . .

رافقتُهُ وقلبي ينتحُ أحزانًا مُزمنةً راكدة

أيقظتْها رقدتي على سريري الأبيض

في الطابق الخامس في مستشفى الكرمل في حيفا ،

وعينا أبي الحزينتان النّديانتان

كان يُنَقّل خُطاهُ الثّقيلةَ خلف عُكّازٍ

تسبقُهُ بخُطوةٍ أو خطوتين

لأوّل مرّةٍ أَلْحَظُ وقاحة عُكّازِ أبي

وقلّة أدبها .

فهي دائمًا ، ورغم شيبته الجليلةِ ،

وبياض عمامته ،

تسبقُهُ بخُطوةٍ أو خطوتين .

لأوّل مرّةٍ أَلْحَظُ صلابَتَها

وقوّتها واستقامةَ عودها

لأوّل مرّةٍ أشعرُ انّها تُعايرُ أبي

بهشاشةِ عظامه وضعفه

وانحنائه تحت ثقلِ شيخوخته .

لكنّي . .

سأغفرُ لها وقاحتها

وقسوتها

وقلّة أدبها . .

سأغفرُ لها لما تحملُهُ من شبابِ أبي .

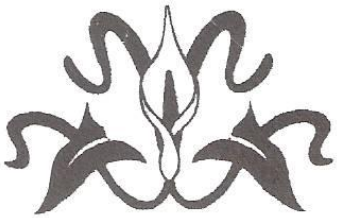

٦

هنا . .

في مستشفى الكرمل في حيفا

وعلى سريرٍ أبيض في الطابقِ الخامسِ

قبل عامٍ ونصفِ العام

تركتْ أمّي زفرةً معبّأةً بلَوعةِ ألفِ زفرة

ثُمّ رقدتْ رقدةً لا قيامةَ بعدها .

كُلّما زرت مستشفى الكرملِ

سمعْتُ زفرةَ أمّي

إنّها كبندولِ ساعةٍ عُلّقتْ على حائطٍ خشبيّ ،

لا يكفّ عن لولبيته .

تمنّيتُ لو أنّ تلك الزّفرةَ قنبلةٌ موقوتةٌ

لتنفجرَ في لحظةٍ مُعيّنةٍ ،

ولأستريح . .

ولكنّ زفرة أمّي كبندول السّاعةِ
لا يكفّ عن حركته اللّولبيّة .
اليوم . .
وأنا على سريرٍ أبيض في مستشفى الكرمل ،
في غرفةٍ في الطّابقِ الخامسِ
بجانب غرفةِ أمّي
لم أسمعْ زفرتَها تلك
وأحسستُ بكفٍّ طهورٍ
تمسّدُ تجاعيد مُهجتي
وبعينينِ جارحتين تحرسان رفيفَ بسمتي .

V

على سريري الأبيض في مستشفى الكرملِ . .

أمس . .

رأيت أمّي جالسةً بجانبي

وكطفلٍ يتعثّرُ بفرحته

ناديتُ : أمّاه . . . أمّاه . . ! !

أتعبتْني الحياةُ وضيّقَتْ عليّ دائرةَ فرحي

بدونكِ أصبحَ فرحي منقوصًا

وأيّامي تُعاني ارتفاعًا حادّاً في الضّغط .

وليتكِ تأخذين ضيقَ صدري

الى رحابةِ صدركِ

وهشاشةَ عقيدتي الى قُوّةِ إيمانك

وضآلة قامتي إلى سُمُوِّ شموخِكِ .

أُمّاهُ ! !

أراكِ ولا أراكِ . .

لكأنّي مصلوبٌ على خُطّافاتِ ضعفي البشريّ

وأنتِ أرْاجيحُ أملٍ مُدلاّةٌ من سماواتٍ لازورْديّةٍ

أراكِ . .

وأنا ما بين ضَلالِ نُعاسٍ وظِلال يَقَظَة

ويا ليت ما أراهُ هَبَاءَةٌ من حقيقة .

إذن . .

لكنتُ تمنّيتُ على اللّه ألاّ أنام .

ولكنّي أراكِ خلف زُجاج رؤايَ ،

وبين طيّاتِ أحلامي .

ولذا تمنّيتُ على الله ! !

كم تمنّيتُ على اللّه ألاّ أستيقظ ! !

Λ

على سريرٍ أبيض
في الطّابقِ الخامسِ في مستشفى الكرمل في حيفا
أُجالسُ عذارى أفكاري
وأصغي الى هواجس قلبي المُتعب .
وعلى حافّةِ شُرفةٍ في الطّابقِ السّابعِ
أَلْمَحُ – بعَوْن نظّارتي الطّبيّة – زوجين من حمام ،
وفاءً للحقيقةِ
وإيفاءً للحقّ أقول : أرى عاشقين في حالة عشقٍ إلهيّ .
الصّدرُ يلامسُ الصّدر بما لا يخدش خجلَ العذراء
والعنق على العُنُق في حركاتٍ تبادليّة .
تُرى بماذا يهجسان ؟ !
هل بعين صيّادٍ غادرٍ
أخطأتْهما للمرّة الثّانية أو الثالثة أو الرّابعة ؟ !
أم بوفائِهما الأبديّ ؟ !
وعشقهما الذي لا ينتهي . .

هل يندُبان يومًا جميلاً قضَى
أم تُرى يشدوان لغدٍ مُشرقٍ قادم
ويعودُ السّؤال عليّ : تُرى بماذا يهجسان ؟ !
لأعودَ الى عذارى أفكاري
وهواجسِ قلبي المتعب مع تعديلٍ بسيطٍ في المشهد –
لكأنّهما بوفائهما الأبديّ
وعشقهما الذي لا ينتهي
خيطٌ شفيفٌ من قوسِ قُزحٍ
تسلّلَ إلى شبكةِ أحزاني .

٩

تجلسُ واضعةً رِجْلاً على رِجْل
لاهيةً لاهبةً تُدخّنُ
وحاشيةُ فستانها المشدودِ
على جسدها المتوثّب كجسد لَبُؤَة ،
خيطٌ وهميّ يفصلُ ما بين عُرْيِ فخذيها ،
وبين ما تَخَفّى منهما ،
صدرُها المُتشامخ بفُتوّته المتوحّشة ،
وبِحلَمَتين ناتئَتين ،
يُثيرُ موجةً عارمةً من القالِ والقيلِ ،
بين حواسّي المُستجيبةِ لأيّ تحرّشٍ
والقابلةِ لأدنى استفزاز .
«بول غوغان» يشدّني بخيوط فنّه العاري
الى مجاهلِ تاهيتي . .
والممرّضةُ القادمةُ بعطرها الأنثويّ
ورائحة ثوبها المُعقّمِ
تُعيدُني الى سريري الأبيض ،

لألهجَ مع النّاصريّ :

«وأمّا الرّوح فنشيط

وأما الجسد فضعيف»

فيا أيّتها العين

سألتُكِ أن تكُفّي عن دغدغةِ الرّوح الى حين

ويا أيّها القلبُ الموجعُ

أستحلفُكَ أن تكفّ عن خوض بحارٍ مُزبدةٍ

عاليةِ الموج .

يكفيك أن تُبلّلَ قدميك بمياه الشّواطئ الرّمليةِ

الضّحْلَةِ بعد اليوم . . يكفيك . . . ! !

١٠

العجوز الّذي يجلسُ الى الطاولةِ قُبالتي

في غرفةِ الطعام في الطّابقِ الخامسِ

في مستشفى الكرمل ،

يُقطّعُ حبّةَ البنادورة على مهل . . .

كأنّي به يُثبّتُهما بشوكةِ السّنين

ويقطّعها بسكّين الزّمن .

غضونُ وجهه تقول : لديه بقيّةٌ من عمر

وأمّا ارتجاجُ يديه يحكي غيرَ ذلك .

نظرَ الى الصّحن وما تصنعُ يداهُ . .

نظرَ إليّ . . مبتسمًا عن أسنانٍ اصطناعيّةٍ ،

مُتآكلةٍ وقال : ما زلتَ صغيرًا

قلْتُ : ليس على المرض صغيرٌ أو كبير

قال : صدقت . ما هذه الحياةُ سوى صحنٍ كبير

وكُلُّنا فيه مُقطّعون مأكولون ! !

كُلّنا ماضون خلف ماضين

مع فارقٍ واحدٍ بين غنيٍّ وفقير

الغنيُّ يذهبُ ولا يأخذُ شيئًا معه

والفقيرُ يذهب ولا يترُكُ شيئًا وراءَه

وتبقى قبضةٌ جبّارةٌ وشوكةٌ وصحنٌ وسكّين ! !

على سريرٍ أبيض
في الطّابقِ الخامسِ في مستشفى الكرملِ في حيفا
هكذا فجأةً
وبدون سابقِ نذير
تذكّرتُ قهوةَ جدّي
تذكّرتُها وأنا المتلهّفُ عليها
والمشوقُ الى مُخاصَرَتِها
وهي الممنوعةُ عنّي
والمُتَغنّجةُ على قلبي الذي يشكو التّضخّم
ويمارس هوايته المفضّلةَ منذ سنين «عدم الانتظام»
أجلْ عدم الانتظام ! !
في راهنٍ ما أحوجني فيه الى الدّقّةِ والانتظام .
وليس غريبًا أن أتذكّر قهوة جدّي

قهوةُ جَدّي تختلفُ عن أيّ قهوةٍ في الدّنيا
حتى بعد أن أدخلوها دائرةَ اهتماماتهم

فغيّروا اسمها
وبدّلوا شكلها
ونعتوها بما لذّ لهم وطابَ من نعوت
ظلّت قهوةُ جدّي سيّدةَ المهرجان الأولى
لونًا ونكهةً وأصالةً .
كان جدّي يقول :
القهوةُ كالفرس الشّموس
أو كالمرأةِ الملول
إن لم تلاغِها صباحًا
وتُناغها مساءً
هجرتْكَ ، وخسرتَ حُبًّا ما بعده حُبّ
وصَداقةً ما بعدها صداقة .
وكما أنّ يوم الطّاحونةِ يوم ،
هكذا عند جدّي ، يوم القهوة يوم –
ولها عنده ما لها من طقوسٍ إكليريكيّة صارمة .
أذكُر كيف كان يحمّصُها على نارِهِ الهادئة
«بمِحماسةٍ» من حديدٍ صلدٍ مُزخرَفٍ
شرط أن تكون صناعة «شاهين» –

أمهر حدّادي الجليل –
ولا يُبرّدُها إلاّ على طبقٍ مصنوع من سيقان
الحنطةِ الملوّنةِ ، والمجدولةِ طوقًا وراءَ طوق
بفطريّةٍ فلاّحيّةٍ مُدهشة
ولا يدقّها إلاّ في جُرنِ القهوة المصنوع من خشب التّوت .
– لماذا التّوت ياجدّي ؟ !
– لِخشب التّوت رنّةٌ طروب
والقهوةُ مِطرابةٌ تحبّ الطّرب .
وكان لا يغليها إلاّ بأباريقَ نُحاسيّةٍ «مغاريّة»
مزخرفةٍ بكلام اللّه تبرّكًا ورحمة .
وكُلّ شيءٍ في قهوةِ جدّي بمقدار
الماءُ بمقدار
ودقيقُ القهوةِ بمقدار
والهالُ بمقدار
والسّكّرُ بمقدار
والزّمن . . حتّى الزّمنُ بمقدار . .
وبعد كُلّ ذا يمزجُها بفناجين خاصّةٍ
على صينيّةٍ نُحاسيّةٍ تُجانسُ الأباريق ،

نَمْنَمةً وروعةً ، ثُمّ يبتسمُ ويقولُ مُتفكّهًا :

– تفضّلوا . .

ها هي ذي المحبوبةُ السّمراء مُلهمة الشّعراء .

ولا أمدّ يدي . .

– لِمَ لا تمدّ يدَك ؟

– الأطفالُ لا يشربون القهوةَ – تقولُ أمّي –

– وهل يوجدُ أطفالٌ هنا ؟ . . أنا لا أرى

أطفالاً بيننا . . الرّجالُ يولدون رجالاً . . إشربْ !

– سأشربها بالسّرّ مخالفًا أمّي إذًا !

– لا يا سَنَدي . . إيّاك أن تفعل . .

أوتدري لماذا طرد اللّه آدم من جنّته . . ؟ !

– خالف الوصايا وأكل ما أكل من تُفّاح .

– لا تصدّقْ ! إنّ اللّه قد ضبط آدم

يشربُ قهوته سرًّا

والقهوةُ يا ولدي لا تُؤخذُ سرًّا

إنّها كالصّلاةِ

وأسمى حالات الصّلاةِ أن تُؤخذَ جمعًا ،

وتُمارسَ علانية .

إشربْ يا ولدي . .
وخذْ قهوتَكَ رشفةً بعد رشفة
لا حارّةً تكونُ ولا باردة
فبين كُلّ رشفةٍ ورشفةٍ تتساقط الأحزانُ
عن شرفةٍ في القلب
وتنتفض الرّوحُ على رتابةِ الزّمن
ويتجدّدُ الولاءُ لمملكةِ الفرح .
القهوةُ يا ولدي موروثٌ عربيٌ حضاريّ ،
وكما الذّهبُ الخالصُ لا يقبَلُ جوهرُهُ التّبديلَ
أو التّعديلَ إلاّ بمقدار ما يسمحُ الشّكلُ ،
الّذي يتشكّل به ، هكذا قهوتُنا العربيّة .
فاشربْ يا حبيبي وتعلّمْ ،
وعَلّمْ مَنْ هُمْ بعدك :
القهوةُ مُرّةٌ كالحياة
وحلوةٌ كالحُبّ
وغامضةٌ كالموت !
وهل وجودُنا الآنيّ هذا إلاّ حياةٌ وحُبٌّ وموت ؟ ! !

*

على سرير أبيض

في الطابق الخامس في مستشفى الكرمل في حيفا

تذكّرتُ قهوة جدّي . .

فقهوةُ جدّي ميراثٌ أعلّقهُ أمانةً في عُنُقي

أخشى أن يضعني مشراطُ الجرّاحِ على ذاكَ ،

الحدّ الفاصلِ ما بين نور الحياةِ

وما بين ظُلْمةِ الموت ، . . .

. . . قبلَ أن أُبرّئَ ذمّتي .

وها أنذا قد فعلْت . .

١٢

عندما يطلبُكَ الطّبيبُ الجرّاحُ الى غرفتهِ
ليحدّثكَ عن وضعك الصّحّيّ بموضوعيّةٍ علميّة ،
وبحياديّة ،
لا تستطيعُ أن تكون موضوعيًا أو حياديًا .
تعودُ الى سريرك الأبيضِ ، في حالةِ شُرودٍ
ذهنيٍّ قسريّ ،
تسترجعُ ما قاله طبيبُك كلمةً كلمةً ،
لتُرجعَ نفسَك الهاربة بأعنّتها
الى حظيرة الرّأيِ ومرابط الحكمة .
هل من السّهل أن توضعَ بين خيارين
كلاهُما يبدأ بما لا تحبّ وينتهي بما تكرهُ ؟!
على سرير أبيض
في الطابقِ الخامسِ في مستشفى الكرملِ في حيفا
كان عليّ أن أختار ما بين أن أعيشَ
مع غُدّة «البروستات» التي تحوّلت الى مستعمرةٍ
سرطانيّة تهدّدُ باحتلال الجسم كلّه ،
وبين أن أجري عمليّة استئصال تلك الغُدّةِ

الخائنةِ الغادرة بقلبٍ يقول لكَ : لا .. لا !

أرجوك لا تفعلْ ! !

إذ ما عسى قلبٌ مثلي يصنعُ

إذا كان يُعاني من التضخّم ،

ويشكو من ضعفٍ في النّبّاض ،

وترهقُهُ الفوضى وعدم الانتظام ! ! ؟

أنت بين خيارين إذًا ،

أن تعبر النّهر في دَغْلٍ وتعلمُ بأنّ تمساحًا

جائعًا ينتظر ،

أو تجلسَ على الضّفة مرتعدًا

وتعلمُ أنّ مفترسًا ما آتٍ مع اللّيلِ لا محالة .

اللّه ! ! ما أجملَ عبورَ النّهر ،

لولا ذاك التّمساحُ الجائعُ المنتظرِ ! !

قيل : . . وبعد أن غسل أبو جعفر المنصور

يديه الملطّختين بدماءِ ضحاياهُ

وبعد أنْ لبس الدّيباج وتطيّبَ بالطّيب ،

وجلس على عرشه المُحلّى بالذّهب الخالصِ

والمُرصّعِ بالياقوت ، زفرَ زفرةً طويلةً

وقال راهبًا مُلْتاعًا :

– ما ألذّ الحياةَ لولا الموت ! !

وإنْ سمعهُ الرّبيعُ وزيرهُ ونديمُهُ ، قالَ

غامزًا لامزًا : ولكنْ يا أمير المؤمنين

لولا الموت لما جلستَ على هذا العرش ، وما طابتْ

لك الحياة ! !

آه . . ! الموت . .

ما أنت أيها المهيبُ المخوفُ من أبد الآبدين

وإلى دهرِ الدّاهرين ؟ !

هل أنت خاتمةُ الحياةِ الدّنيا

أم تُراك بداية حياةٍ عُليا تعصى مدارِكَ الأحياء ؟

وإذا كان الملاك عزرائيل يقبضُ الرّوحَ

ليعيدها الى بارئها . . فما أنت إذًا ، ؟ !

واللهِ ! ما أنت إلاّ مقاولُ هياكل تبلى

وأجسادٍ تندثر .

وما دامت الرّوحُ عصيّةً عليك ،

فأنا لا أخافُك إلاّ بمقدار ما أفرحتني الحياةُ

والحياةُ لم تضحِكْني بقَدْر ما أبكتْني . . .

فخذ هذا الجسد / القميصَ البالي إن شئْتَ ،
متى شئتَ لتفيضَ روحي النّاشطةُ
باحثةً لها عن ثوبٍ جديدٍ يحفظُ لها ديمومَتها
ودورتها الأبديّة الدّائمة :
نُطْفَةٌ . . ولادةٌ . . طفولةٌ . . صبا . . شبابٌ
كهولةٌ . . شيخوخةٌ . . نهايةٌ / بداية . . –
صخرةُ سيزيف . .
وسيزيفُ الشقيّ أبدًا ، يبدأ رحلة شقائهِ
من حيث تنتهي ، وتنتهي من حيث تبدأ .

*

أوراقُ الطّبيب المُخدّرِ الّذي حضرَ
أعادت إليّ حضوري
وَقّعْتُ الأوراق المطلوبةَ بهَدْي إحساس جنائزيّ
في داخلي ، يستعجلُ لقاءً لا بُدّ منه مع الموت
في زمانٍ ليس لي وفي مكانٍ لَسْتُ له ،
وبشروطٍ لا تخضَعُ لأحكامٍ رياضيّةٍ ، أو حَكَم .
عجبًا . . ؟!
منذُ متى يلعبُ الموتُ لعبَتَه في زمانٍ ليس زمانَهُ

وفي مكانٍ ليس مكانَهُ ،
وبشروطٍ تخضَعُ لأحكامٍ أو حَكَم ؟!
فيا أيّها الموت ! !
أيّها الهصور اللاّبدُ أمام غرفتي
لن أقدّم لك أسترحامًا يزيدُ من كبريائكَ
ويزيدُ في مذلّتي .
فزوجتي الغالية عاهدتْني على أن تروّض نفسها
على فراشٍ بدون دفءِ أنفاسي .
وأطفالي سيعتادون على حزمِ أمورهم بدون نصائحي
وأصدقائي قد حمّلوني فوق طاقتي من حُبّهم ،
ومِن صلواتهم .
ها أنذا أمامك وجهًا لوجه أعدّ العُدّةَ
لأخرج من ردهةِ الدّنيا وأنا – يشهدُ الله ! ! –
لستُ مدينًا لها ولا هي مدينة لي
لن أرتعدَ إذا ما حملْتَ روحي على جناحيكَ
الفولاذيّين وطرتَ الى حيث تشاءُ أنتَ
ولا أشاءُ أنا . . كما ارتعدتُ
يومَ حملْتَ عائشة ! !

أتذكرُ عائشة ؟ !

عائشة التي ذبحها أخوها من شحمةِ الأذُنِ

الى شحمةِ الأذُنِ فما ترَحّم عليها أحد .

كنتُ طفلاً – والطفلُ لا ينسى –

وكنتُ ألعب مع أخيها فادي .

بياضُها مرمريّ

عيناها سوداوان مكحّلتان بميلٍ إلهيّ

شعرها مُسدلٌ على قامةٍ لا تُقاسُ

بمعاييرَ بشريّة .

تلك هي عائشة . .

كُلّما ذهبْتُ لألعب مع أخيها فادي

كنتُ أنظُر إليها وأطيلُ النّظر .

وكانت تُلاحظِ ذلك منّي فتمدّ أصابعَ عاجيّةً

تغرسُها في تجاعيد شعري وتهمس :

– أأنا جميلة الى هذا الحد ؟ !

فأطرقُ وحُمرةٌ من خجلٍ داهمٍ تدعَكُ لي وَجْنَتيّ

وقُوّةٌ خفيّةٌ تُسبّل لي جَفْنيّ .

أعترفُ الآن بأنّ وشوشاتِ عائشة

اقتلعتْ منّي براعَتي
وغرسَتْ بين ضلوعي قلبًا عاشقًا .
ومن يومها . .
أقسمُ باللّه العظيم من يومها
علّمتْني عائشة أنّ رائحة الأُنثى أذكى من أيّها
رائحة .
وأنّ قلبَ المرأةِ أثمنُ من أيّ كنز ،
وأنّ صدرها أرحبُ من أيّ بيدر .
ومن يومها
كم تمنّيتُ أن أنتزعَ خوفًا غرَسْتَهُ في قلبي
فأسألَكَ سؤالاً طالما أثقل طفولتي
ونغّص عليها صفاءَ أحلامها
لماذا أخذتَ عائشة ؟!
عائشة التي ذبحها أخوها من شحمةِ الأذن
الى شحمة الأذن
فما ترحّم عليها قلبٌ
وما بكتْها عين . .
حتّى أنا وفادي لم نذرفْ عليها دمعةً واحدة ! !

۱۳

أعترفُ الآن . .
وبعد أن أكّد (المونيتور) عودتي
من محدوديّة علم الجراحةِ والتشريح
الى لا محدوديّة الكون . .
أعترفُ أنّني خرجتُ من ظلمتين ،
ظُلمةِ الرّحم
وظُلمةِ مصيري وأنا مُعلّقٌ على حدّ مشراطِ
الجّراح وحِدّة ذكائه .
وبين هذي وتلك ، عشتُ وهمًا أشدّ غرابةً
من سحر السَّحَرَةِ وبُطْلِ أباطيلهم ،
يُسمّى حياتي

*

في غرفةِ الإنعاش –
أعودُ الى الوعي . .
وربّما يكون الوعي قد عاد إليّ ! !
وأكثر ما شدّني أنّني مشدودٌ الى أنابيبَ
آخذُ منها ما قد يُسارعُ في إعادتي الى الحياة

وتأخذ منّي ما قد يُعيق عودة الحياة إليّ .

أنابيبُ في الفم والمِنْخَر الأيمن والمرفقين وأسفلِ

البطن ومجرى البول . . . أنابيب . . أنابيب

حتّى خُيّل إليّ أنّ الأنبوبَ ومخترعَهُ أهمُّ

خالقٍ مَخْلوقٌ منذ آدم ونوح والى ما شاءَ الله

من عصورٍ داهمة.

أتقيأ قليلاً عن طريق أنبوب الفم . . والألم يشتدّ

ويشتدّ الى حدّ التمزّقِ .

أعودُ الى الظّلمةِ ثانيةً ،

لأفتح عينيّ بعدها فأرى الشّمس – عفوًا ،

أستجمعُ جاهدًا بعض صفائي الذّهنيّ

فأدركُ أنّه المصباحُ الكهربائيّ المُحملقُ في ضعفي

وقلّةِ حَيْلي وحيلتي .

أتمنّى بعض قوّةِ الشمس وعطفها . .

أعودُ الى الظلمةِ لأصحو من جديدٍ

على صوت منقوع بنقيع الحُزنِ ، وشفتين

حارّتين تُقبّلان ظاهر يدي . .

أمّاه . . . ! !

أيّتها اللّبوَة التي تعرفُ كيف تحمي جروَها
من خطاطيفِ السّباعِ الجائعة .
جروُكِ أنا
وخطاطيفُ الموتِ معلّقةً تتأرجَح حول سريري ! !
أستدرِكُ حالةَ الهذيان هذه
وأدركُ أنّ الصّوت صوت إحدى أخواتي
والقبلة قُبلتُها .
فأترحّمُ على روح أمّي بعينٍ طفّانةٍ دمعًا
وبظِلالِ بسمةٍ حائرة .
ومن غَبَشِ اللاّوعي
إلى دارةِ الوعي
راحت خواطري تُلمْلِمُ بعضَها
ونفسي تُلقّطُ ما طَفا على سطح ذاكرةٍ
تستعيدُ بعضَها أشتات صُورٍ وشتاتَ مُخيّلة

*

أتذكّر بيتنا الأوّل . .

بيتُنا الأوّل سقفُهُ من تراب

ومصطبتُهُ من تراب

وقائمٌ على جُدران وعقودٍ من حجارةٍ وتراب

وخلايا القمح والبرغل والعَدَس والحمّص والفول

والشّعير من قصبٍ وقَصَلٍ وتُراب .

في هذا البيت التّرابيّ وضعَتْني أمّي بملامح ترابيّة

وأكلتُ لقمةً ترابيّة المضغة

وشربتُ شرابًا ترابيّ الجرعة

وتعلّمتُ لغةً تُرابيّةً الأبجديّة

واعتنقتُ عقيدةً ترابيّة الهَدْي والهِداية .

في هذا البيت التّرابيّ

تكوّرت أحلامي

وانفردت أجنحةً نسريّةً قويّةً

ضربْتُ بها أبعاد سماواتٍ

وأعماقَ بُحورٍ وآفاقَ أرضين.

*

مدرستي الأولى كبيتي الأوّل ، غرفةٌ باهتةُ الجدران
باردةٌ شتاءً . . حارّةٌ صيفًا .
درجنا إليها بأقدامنا الحافية نطلبُ العلمَ والمعرفة
شعارُنا «أطلب العلم ولو في الصّين» .
وما بين أنشودةٍ من هنا وقصّةٍ أو حكايةٍ من
هناك ، وبين لُعبة أو رحلةٍ من هنالك
نسجْتُ الألفَ باءَ شراعًا يحملُ سفينتي
الى جُزُرٍ من نور .
ومعلّمتي الأولى خَطّةٌ عربيّةٌ بتوقيع إلهيّ
وتوزيع سماويّ
نخلَةٌ بقامتها
قهوةٌ بِسُمْرتها وسوادِ عينيها
واحةٌ نجديّةٌ بعطفها وانعطافها
تدمُريّةٌ بكبريائها وشموخها . .
معلّمتي الأولى المليحة بكُلّ ما فيها
علمتْني الأنشودة والقصّة
علمتْني الرّسم والرّسمَ بالحروف
وعلّمتْني بلمسةٍ من يدها كيف أحبّها وأحبّ الحياةَ

وفوقَ كُلّ ذا علمتْني أن ألبس عروبتي جلدًا تحت
جلدي ولا يهُمّ بعدها إن سرِتُ عاريًا . .
وما إن بدأتُ أفكّ الحرف
حتّى جاءَ ني أبي بكتابٍ اشتراهُ لي من عكا .
كان الكتابُ مستعملاً ، ولكنّي أحببتُهُ كثيرًا
وقرأتُهُ مرّاتٍ ومرّات .
وأكثر ما شدّني إليه انّه نقلني الى عوالمَ
عشتُ فيها حياةً غير حياتي
وصادقْتُ أُناسًا غير أناسي
فأكلتُ معهم وشربتُ ما شربوا
ويوم ماتت تلك الطّفلة الشقيّة فاطمة
بكيتها بقلبي ودموعي
وحملتُها ذكرى حزينةً مسحت دفاتر أيّامي
بلونٍ رماديّ حزين .
فاطمة المشتعلةُ حياةً – تحكي القصّة –
أشعلت عودَ ثَقابٍ غير مُصغيةٍ لنصائح أمّها
المتكرّرة فاشتعلت ولا من مُجيرٍ أو مُطفئ سعير .
اشتعلت فاطمَةُ ولم يبق ما يدلّ عليها

سوى حذائها الأحمر الصّغير - هديّة العيد -
ليكون شاهدًا ملكيًا على وعورة دروب الحياةِ
وضيقِ دهاليزها مهما تراءَت سرابيةً خادعة؛

*

سَفْرتي الأولى كانت رحلة ليليّةً طارئَة . .
فرحتي بركوبي السيّارة لأوّل مرّة
ضاعت على الطريق الى المستشفى ما بين
شهقاتي وزفراتي الموجَعة
السّيّارةُ القديمةُ - الوحيدةُ في القرية - تخضّني
وفكّي الأسفل الذي سقطتُ عليه
من على سطح المعصرةِ القديمة يخضّ مراكزَ
أعصابي
جدّي لأمّي يجلس عن يساري وقد تلفّعَ
بعباءَته المقصّبةِ
وبصمْتِهِ القاهرِ الذي يليقُ بمقامِهِ كمختار الحارة الشرقيّة
وأمّي عن يميني تُصبّرُ نفسها
بمدى احتمالي أوجاعي ودرجة اصطباري
- يا لقسوة قلوب الرّجال ! ! صاحت أمّي

بعد أن أعلن والدي أنّ الأمرَ حدثٌ عابرٌ

لا بلْ شقاوةٌ يجبُ أن أحاسبَ عليها ،

ولن يرافقنا . . مُتّهمًا أمّي وجميع نساءِ الأرض

برهافةِ القلب وتهويل الأمور .

بعد أسبوعين عدْتُ من مستشفى الدكتور حمزة

في حيفا بِكِسْرين في فكّي الأسفل قد انجبرا

مع قليلٍ من الألم وكثير من التدلّل .

قلتُ لأبي : أريدُ درّاجةً

لم يقلْ لا .

من عادةِ أبي ألاّ يقول لا

معتقدًا أنّ المماطلةَ في مثل وضعنا / فقرنا

أخفّ وقعًا وأنعمُ ملمسًا لمشاعر طفلٍ مثلي

بألف ألفِ رغبة .

ورحْتُ أتخيّلُ الدّراجة بعجلاتها الثّلاثِ ،

وبألوانها الحمراء والصّفراء الفاقعة .

أتخيّلُ كيف سأركبها

وكيف سأنهكُ المصطبة دورانًا وشيطنة ،

وأذكّر أبي

وأبي لا يقول لا !
وراحت الأيامُ تنسحبُ من أمامي
لتكوّمَ لُهاثَها خلفي رُكام أمانيّ لم تَلْقحْ
فتناثرت سِقاطًا
تلك كانت خيبتي الأولى
وقد علمتني أن أشتهي دون أن أطلب
وأن أتمنّى دون أن أنتظر .

*

يوم سفر أبي الى عكّا كان يومَ فرحٍ في بيتنا
هكذا عشتُ بعضَ طفولتي .
فعكّا بالنّسبة لي حُلُمي الجميل فصلّتْهُ مُخيّلتي
على مقاس ما كنتُ أسمعهُ من أبي .
وعكّا بالنسبة لي سوقٌ مليئةٌ بالباعةِ والمُشترين ،
مليئةٌ بالعِرْق سوس وقصب السّكّر وقطوف الموز
والتّمر المُدلاّة ، وأطباق الكُنافة – التي سمعْتُ
عنها دون أن أذوقها ! ! – وزكائب قمر الدّين ،
وبسطات السّلطان ابراهيم والذّبائح المعلّقة
بخُطّافات جارحةٍ معقوفةٍ كمخالب الصّقور .

وكان أبي رغم قلّة ما في الكفّ – لا يبخَلُ علينا ،
إن استطاعَ الى الشّراءِ سبيلا . .
كان يشتري ولكن بطريقته المُبتكرَةِ الخاصّة ،
وبعد حسابات طرحٍ وجمعٍ دقيقة .
فمن الفواكه كان يكثُر من قصب السّكّرِ والجَزَر
ويُقلّ من الموز والتّفّاح .
ومنَ الحلوى كان يكثر من الهريسَةِ والغُرَيّبَةِ ،
ويُقلّ من البقلاوة والفَطير .
وهكذا . . وهكذا يمنحُ بيدٍ ويمنَعُ بأخرى ،
فرحتي بعودةِ أبي من عكّا ذات مرّة ،
لم يعرفْ قلبي من قبلها فرحة .
وقد أنستْني هزيمتي في أولى معاركي .
وقد فُرضَتْ عليّ فرضًا – ذاك اليوم – ! !
فالكبشُ الذي ربّيناهُ ودلّلْناهُ ، وحملناهُ على أكتفانا
حَمَلاً وديعًا صار كبشًا شرسًا غادرًا بقرنين
مجدولين مُعَدّين لنطاح كنت أنا ضحيّتَه الأولى
فرحتي تلك مسحتْ أوجاعي وجمّعت شتات
نفسي المهزومةِ في صرخة فرحٍ غامر :

– يا الله ! ! طابةٌ تدخل بيتنا ؟ ! طابة ، كقطعةٍ
من قوس قُزح بين يديّ لي أنا ؟ ! ما أجمل
الحياةَ يوم تبتسم . . .
حقيقةً لم تكنْ فرحتي أنا وحدي بل فرحةَ
أولاد الجيران والحيّ وكلّ من سمع عن طابتي
من قريب أو بعيد .
فرحتي الأولى علمتْني أن فرَحَ ساعةٍ في بيتِ فقير
يمسحُ أحزانَ سنةٍ كاملةٍ بأيّامها وأسابيعها
وشهورها وفصولها وتقلّبات طقسها .

*

كم تساءلتْ طفولتي فيما بينها :
هل نحن فقراء ؟!
– الحمدُ للهّ . . في بيتنا خبزٌ وزيت . . كانت
تُجيبُ أمّي . .
وعلى رفٍ تطالُه عيونُنا المُستجديةُ
ونفوسُنا المُتَشهيّةُ دون أن تطالَهُ أيدينا ،
نعّاراتٌ جالساتٌ كالأخوات التوائم الحوامل .
واحدة للعسل وأخرى لحلو السّفرجل ، وثالثة

للباذنجان المُخلّل بالزيت ، ورابعة للّبنةِ البلديّة
المكوّرة والمحفوظة بزيت الزّيتون . وخامسة
لمُعَقّد التّين بالسّمسُم واللّوز والجوز .
وأمّا السّادسة والسّابعة فللْقاورمَة –
وهي لحمُ الضّأن المفروم والمقليّ بالدّهنِ والملح /
مصير الأكباش في قريتنا .
حتّى كبشُنا الذي هزمني في أولى معاركي انتهى
الى هذه النّهاية البائسة .
وعندما كنت أقول : أريدُ شيئًا من هذا يا أمّي ،
مُشيرًا الى رفّ النّعّارات ، كانت تقولُ جازمة :
– لا . . هذه للضّيف ! !
فأصمتُ احترامًا لقولِ أمّي وإكبارًا لمقام الضّيف .

*

وكم تساءلت روحي فيما بينها :
هل حياةُ الفقر تُؤَهل أهلها إلاّ للحُزن ؟!
واللّقمةُ المُغمّسةُ بمنقوع الألم
هل تسند قلبًا كسيرًا
تساءلت روحي وهي تَعُدّ أفراحها فتجدُ فيها أولاً وآخرًا

وتعدّ أحزانها فلا تجدُ أوّلاً فيها ولا أخرًا .

عجيبٌ أمرُنا نحن الفقراء ! !

فإذا سُئلَ الواحدُ منّا عن حالهِ يقول : الحمدُ للّه

قلّةٌ وبَسْط . .

وإذا ضحكنا قُلنا : يا ربّ ! ! نجّنا من شرّ هذا الضحك

وأمّاَ إذا بكى أحدنا قيل له : في البُكاءِ فرج !

– يوم تزوّجت عيّوشة زينة بنات حارتنا ،

وعيّوشة هذه ليست عائشة التي ذبحها أخوها

من شحمة الأذن الى شحمةِ الأذن فما بكى عليها أحد ! !

يوم تزوّجت رأيتهم يبكون

يدبكون ويبكون

يُهاهون ويبكون

سألتُ : لماذا يبكون ؟!

أكثر من واحدة تبرّعت بالاجابة : إنّهم لا يبكون . .

هذه دموع الفرح يا قليل العقل ! !

كم كان صعبًا على مداركي الطّريئة غير المُجرّبة

أن تجمع ما بين ملوحة الدّمعة وما بين عذوبة الفرح

دموع الفرح تلك ذكّرتْني بأبي كرَم – اللاّجئ

من سحماتا الى بلدنا – رأيتُه مرّةً يعزفُ على
مزماره الشّجيّ ويبكي . .
– لماذا تبكي يا عمّ ؟!
فَرَكَ عينيه الحمراوين وقال مُحْرَجًا : هذه ليست
دموعًا ، إنّها حساسيّة في عينيّ . ولكن للحقيقة
يا ولدي أقول إن مزماري منشفةُ روحي اذا
ما الرّوحُ تفصّدت حُزنًا .

*

إلهي . . إلهي . .
ها أنذا بين يديك
سألتُك ألاّ تضمّني الى سدرةِ المنتهى
حيث ميزان الحساب الأكبر ، قبل أن تسمعَ
نشيدَ اعترافي .
اللّهمّ إنّي أحببتُ الحياة بقضها وقضيضها
فمن الانسان أحببتُ الأخيار دون الأشرار
ومن الحيوان أحببتُ الجداءَ والظّباءَ والسّمك الملوّن .
ومن الحشرات فَراشات الرّبيع . .
ومن الشّجرِ أحببتُ الحَوْرَ والسّنديان

وأحببْتُ القمحَ من النّبات .

واللّبلاب من العُشب

ومن البقل أحببتُ الهندباء

ومن الأطعمة ما كان نباتيًا

ومن الورود البنفسج والدّفلى والقرَنفُل والياسمين ،

ومن الزهّر أحببتُ السّوسنَ وشقائق النْعمان

والخُزامى الجبليّة الزّرقاء المُقَبّبة كأجراسِ

الكنائس الصّغيرة .

ومن الطّير أحببتُ الحساسين والعنادل

والشّحارير واليمام

ومن الأصوات عزيفَ المزمار ونحيبَ الشّبّابةِ

وبُكاءَ الرّباب وهديل الحمام .

ومن النّهّار الأصيل

ومن اللّيل النّجوم

ومن الفصولِ الشّتاء

ومن الشّتاء الغيوم وقوس قُزَح .

ومن الرّوائح الأريج ورائحة الخُبز . .

والأرض بعد سقوط المطر .

ومن الألوان الأصفر والأخضر

ومن الكلام أقلّه وأفيدَه

ومن الشّعر أغزلَه

ومن الغناء أشجنَه

ومن الخلائق الصّدق

ومن النّساءِ المليحةَ الجميلةَ العينين ، الذّكيّةَ ،

الرّشيقةَ القوام الكثيرةَ الاحتشام .

إلهي . . . !

ها أنذا بين يديك ما بين الوعي واللّا وعي

أقرأُ طفولتي الواقفةَ قريبًا قريبًا

من حدود كهولتي

فأجدني مقبلاً على الحياة غير كارهٍ للموت .

أعيشُ يومي قانعًا راضيًا

غيرَ لاعنٍ أمسي ولا مُسْتَجْديًا غدي

وقد عشت ما عشتُ وأنا أنادي :

قريبي القريبُ من قلبي

وأخي مَنْ خلع ثوبَ عائليّته وطائفيّتِه

وجاءَني عاريًا إلاّ من ثوب آدميّتِه .

وأخشى ما أخشاهُ . .

أن أكون قد أخذتُ من الحياة أكثر ممّا أعطيت . .

هنا يكون قهري وهزيمتي وانكساري

أمامكَ يا ملك الموت يا عزرائيل . .

*

لكزةٌ ناعمةٌ توقظُني

وصوت أنعمُ يهمسُ في أذُني :

– الحمدُ للّه . . قراءةُ (المونيتور) تشيرُ الى

عبورك المراحلَ الحرجة ! !

أتساءَلُ : ربّاه ! !

هل ما زالت في العُمر بقيّة ؟!

وهل ما زالت في النّفس رغبةٌ في الحياة ؟ !

لأعِشْ إذًا ،

لأعشْ الى أن يُلقي مصيري بي

في ظُلْمةٍ لا شكّ قادمة

صدر للشّاعر

١) وطني ينزفُ حُبّاً – شعر ، الأسوار عكا ١٩٧٩

٢) وطني رُدّني الى رُباك شَهيدًا – قصص، الأسوار عكا ، ١٩٨١

٣) أموتُ قابضًا حجرًا – شعر – الأسوار عكا ، ١٩٨٦ .

٤) تمتمات آخر الليل – شعر – الأسوار عكا ، ١٩٨٨ .

٥) قابضون على الجَمْر – شعر، إصدار خاص، ١٩٩١ .

٦) حديث الحواسّ – شعر، اصدار خاص، ١٩٩٢ .

٧) عوض يستردُّ صبَاه – شعر، اصدار خاص، ١٩٩٣ .

٨) أنت سَيّبتُهم وشعري
نحيبُ العاجز – شعر – ١٩٩٣ .

٩) ليس في الحقل سوسن للفرح – شعر –
إصدار دائرة الثقافة العامّة ، ١٩٩٥ .

١٠) الحُبّ أوّلاً – شعر – اصدار خاص ، ١٩٩٥ .

١١) فرحٌ يابسٌ تحت لساني – شعر ، اصدار خاص، ١٩٩٦

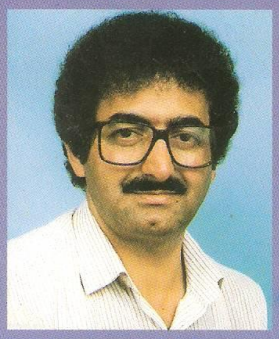

حسين مهنا
على سرير أبيض
مؤسسة الأسوار - عكا
نص

إلهي...!

ها أنذا بين يديك ما بين الوعي واللاوعي أقرأ طفولتي الواقفة قريباً قريباً من حدود كهولتي ، فأجدني مقبلاً على الحياة غير كارهٍ للموت ، أعيش يومي قانعاً راضياً ، غير لاعنٍ أمسي ولا مستجدياً غدي . وقد عشت ما عشت وأنا أنادي: قريبي القريب من قلبي ..

وأخي مَن خلع ثوب عائليّته وطائفيّته وجاءني عارياً
إلّا من ثوب آدميّته .
وأخشى ما أخشاه ...
أن أكون قد أخذت من الحياة أكثر ممّا أعطيت..!
هنا يكون قهري وهزيمتي وانكساري أمامك يا
مَلَكَ الموتِ يا .....عزرائيل ..!